محاضرة 04:

الخـــــرافـــــة

1ــ مفهوم الخرافة:

الخرافة اسم، ومنها الفعل خَرَفَ، ويُخَرِّفُ و المصدر منها الخرَفُ، ويُقال خَرّفَ أي فسد عقله، و الخرافة، و التخريف، كلمات يتداولها الناس بشكل مستمر وهم يرمون بها إلى الكذب، و البعد عن الحقيقة و اللامعقول، كما يشير البعض عندما يقول إنه سمع خبرا خرافة، أي أنه خبر كاذب، وغير منطقي ومن نسج الخيال.

ولكلمة خرافة "fable" معان متعددة:

1ــ أنها قصة حيوانية لا مغزى لها.

2ــ أنها قصة حيوانية لها مغزى و عندئذ تساوي موعظة.

3ــ أنها قصة خيالية بوجه عام فتكون بذلك أعم من قصة حيوانية.

ولكن المعنى الأدبي الاصطلاحي الذي يكاد يجمع عليه مؤرخو الأدب والنقاد ودوائر المعارف هو: " أنها قصة حيوانية يتكلم الحيوان فيها ويمثل مع احتفاظه بحيوانيته، ولها مغزى. ولا يقتصر دور البطولة في هذه القصة على الحيوان وحده بل يقوم بدور البطولة فيها الطير والنبات، والجماد و الإنسان، و إنما نُسبَت إلى الحيوان لأن موضعه فيها أبين من غيره، و القصص التي وردت عنه أكثر عددا.

و الخرافة جنس أدبي قائم بذاته له خصائصه الفنية التي تميّزه عما سواه، ومقياس البراعة فيه مراعاة النسبة بين الرموز التي يتخذها المؤلف من حيوان وغيره و بين ما ترمز إليه من أشخاص حقيقيين، بحيث يكون القناع الذي تتستر وراءه هذه الشخصيات غير كثيف، حتى لا تنطمس الغاية من القصة.

والخرافة بشكل عام، يتوفر لها صفات تميزها عن مفاهيم أخرى، ومصطلحات مختلفة ومن تلك الصفات البعد عن الموضوعية والمنطق، وسعيها لتحقيق أهداف الفرد بأساليب بعيدة عن العلم والعقل. ولقد كانت بداية نشأة الخرافة مع بداية وجود الإنسان على هذه الأرض، فلقد حاول الإنسان البدائي قديما أن يفسر الظواهر النفسية مسخرا لذلك جميع

قدراته العقلية البسيطة وتجاربه الحياتية المحدودة فأوجد تفاسير تبدو سطحية وغير منطقية على الأقل لإنسان هذا العصر ولكنها تعتبر تفاسير إبداعية بمنظوره آنذاك.

والخرافة من الفنون الأدبية التي تنشأ فطرية في أدب الشعب، ثم تأخذ في الارتقاء إلى المرتبة الأدبية فتتبادل الصلات مع الآداب الأخرى ويكاد يجمع الدارسون على أن الشرق هو منشأ الخرافة ولكنهم اختلفوا في البيئة الأولى التي ظهرت فيها، ويتمثل الخلاف في ترجيح مصر أو بابل أو الهند مكانا لنشأة الخرافة. ويرى كثير من العلماء الأوروبيين أن الخرافة الهندية كانت مصدر إلهام لمن كتبوا في الخرافات في الآداب الأوروبية الحديثة ومنهم لافونتين.

2ــ الخرافة عند العرب:

الخرافة في أدبنا العربي قديمة النشأة جاء في كتب الأدب طائفة منها متفرقة في مواضع مختلفة. جاء أكثرها مع الأمثال لتفسيرها وهي جميعا خرافات ذات مغزى. نذكر منها على سبيل المثال قصة " ذات الصفا " التي جاءت لتفسير المثل العربي المشهور " كيف أُعاودك وهذا أثر فأسك" وأصل هذا المثل على ماحكته العرب على لسان حية، أن أخوين كانا في إبل لهما، وكان بالقرب منهما واد خصيب، وفيه حية تحميه من كل أحد، فقال أحدهما للآخر: يا فلان لو أني أتيت هذا الوادي المكليء فرعيت فيه إبلي وأصلحتها.فقال له أخوه إني أخاف عليك الحية، ألا ترى أن أحدا لا يهبط ذلك الوادي إلا أهلكته؟ قال فوالله لأفعلن. فهبط الوادي ورعى به إبله زمانا ثم إن الحية نهشته فقتلته. فقال أخوه: والله ما في الحياة بعد أخي خير، فلأطلبن الحية ولأقتلنها أو لأتبعن أخي، فهبط ذلك الوادي وطلب الحية ليقتلها، فقالت الحية له: ألست ترى أني قتلت أخاك. فهل لك في الصلح فأدعك بهذا الوادي تكون فيه وأعطيك كل يوم دينارا مابقيت؟ قال: أو فاعلة أنت؟ فقالت: نعم.

قال:إني افعل. فحلف لها وأعطاها المواثيق لا يضرها وجعلت تعطيه كل يوم دينارا. فكثر ماله حتى صار من أحسن الناس حالا، ثم إنه تذكر أخاه فقال: كيف ينفعني العيش وأنا أنظر إلى قاتل أخي؟ فعمد إلى فأس فأخذها ثم قعد لها فمرت به فتبعها، فضربها فأخطأها ودخلت الجحر، ووقعت الفأس بالجبل فوق جحرها فأثرت فيه، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار،فخاف الرجل شرها وندم فقال لها: هل لك أن نتواثق ونعود إلى ما كنا عليه؟ فقالت:

"كيف أعاودك وهذا أثر فأسك" وأصبح هذا القول مثلا يضرب لمن لا يفي بالعهد، وقد نظم النابغة الذبياني في هذه القصة شعرا.

وهناك خرافات تقارضتها الشعوب، أو فلنقل ظهر بعضها في جزء من أجزاء العالم، ثم انتشر في سائر الجهات، وفي عمليات انتشاره أخذ طابع كل إقليم نزل فيه من ذلك خرافة " البنت الطيبة والبنت الشريرة " والتي جُمِع لها أكثر من أربعمائة نص من جميع أنحاء العالم. وتروى في مصر مثلا متكئة على كراهية زوجة الأب لابنة زوجها فتبعث بها إلى الغولة بأمل الخلاص منها. وفي الطريق إلى قدرها الذي صورته المرأة لها تتعامل برفق مع عدد من الكائنات الطبيعية حيوانا ونباتا. وعندما ترجع البنت إلى بيت أبيها بعد مقابلة الغولة تراها المرأة في أبهى صورة وهنا تأخذها الغيرة، فترسل بابنتها الشريرة إلى الغولة نفسها، إلا أن البنت تعامل الكائنات نفسها معاملة غليظة منفرة، حتى إذا وصلت إلى الغولة تدعو لها هذه دعوة ملعونة...إلخ.

وهناك حكايات خرافية يعيد صياغتها كبار الأدباء و الشعراء. برغم لا معقوليتها وتسطح أحداثها ولعلّ " جوته " ــ شاعر ألمانيا الكبيرــ واحد من أشهر هؤلاء الذين عنوا بالخرافات، ولم يكن هدفه في ذلك ترفيهيا بقدر ما كان تربويًّا أخلاقيا، ونجح في نقل الحكاية الخرافية من المفهوم الضيق للأدب الشعبي إلى المفهوم الإنساني الواسع .

3ــ الفرق بين الخرافة و الأسطورة:

وتجدر الإشارة هنا إلى التداخل الذي يراه كثير من الدّارسين بين الأسطورة و الحكاية الخرافية. فبالنظر إلى النزعات الخارقة التي تتوفر في الخرافة فإن البعض يجعلها لونا من ألوان الأساطير. على الرغم من وجود فروق بين الأسطورة و الحكاية الخرافية و التي يمكن تلخيصها في ما يلي:

ارتباط الأسطورة بمكان أو إنسان أو حدث له علاقة بالتاريخ، في حين ترتبط الخرافة بالخيال. كما أنّ الأسطورة مرتبطة زمنيا بحدث أو فترة تاريخية محددة، قد تكون واقعية أو ميتافيزيقية " فوق الطبيعة "، في حين تحدث الخرافة في زمن غير محدّد. إلى جانب أن الأسطورة ترتبط بمكان معين أما الخرافة فتحدث في مكان غير محدد، و تتحدّث الأسطورة

في الغالب عن شخصية تاريخية نسج الشعب حولها الكثير من طبقات الخيال. أما الخرافة فتقدم شخصية خيالية.